(٨)

السيدة زينب فى حزنها الجليل

كان يوم كربلاء يوم من أطول أيام التاريخ..

ما ان بدأت تشرق شمسه حتى كان اللئام من جيش عبيدالله ابن زياد.. طلاب السلطة والجاه أمثال عمر بن سعد، وشمر بن ذى الجوش.. وغيرهم ممن يريدون التقرب إلى السلطان باقتراف آثام وحشية، وسلوكيات بربرية فى حق آل بيت الرسول الذين يدعون الانتساب إلى دينه.

إن نبى الرحمة والهدى والرشاد.. والذى أخرج هؤلاء الناس من الظلام الحالك إلى نور الإسلام الواضح القسمات نجد منهم هؤلاء الذين لا يعرفون الهدى ولا الرشاد.. فقد طمست على أعينهم غشاوة من الجهل الغبى، والطمع المهووس.. ونسوا كل القيم والمبادئ وأبسط الأخلاقيات فى سبيل نظرة رضا وعطف من حاكم غبى متسلط، يريد هو الآخر الزلفى والنفاق لسيده الجالس على عرش الخلافة يزيد بن معاوية.

وفى هذا اليوم الحزين الكئيب.. كانت السيدة زينب تعيش الأحداث بعقلها وقلبها وكل كيانه..

إنها وهى السيدة الجليلة الورعة سليلة البيت النبوى، وبنت الإمام علىّ الذى ملأ الدنيا شجاعة وعلمًا وثقافة.. وبنت فاطمة

الزهراء بنت رسول الله وسيدة نساء الجنة.. السيدة زينب وهى واقفة على أرض المعركة تجد أحب الناس إليها من عترة آل البيت يتساقطون تحت وطأة سيوف لا تعرف الرحمة.. وقلوب هرب منها الإيمان، وهى تواجه البيت النبوى لا بالصلوات عليهم كما يأمرهم دينهم، حتى أن يفعلونه فى صلواتهم.. ولكن ليوجهوا السهام والسيوف والنبال على أطهر القلوب، وأعز الناس.!

لم يحاربونه محاربة شريفة.. يتبعون فيها تقاليد الحرب كما وضعها الإسلام.. الذى نهاهم عن الإجهاز على جريح، أو قتل الأطفال، أو حتى تخريب الأشجار وتقطيعها.. بل منعوا عن آل بيت رسول الله الماء، وحرقوا خيامهم، ومثلوا بجثثهم، وطافوا برءوس الضحايا على أسنة الرماح فى شوارع الكوفة، وكأنهم بذلك حققوا انتصارات فى خدمة الإسلام والمسلمين.

رأت السيدة زينب كل ما كان يجرى على ساحة المعركة الغير متكافئة .. ورأت خسة القوم ونذالتهم.. وكأنهم وحوش فى أثواب آدمية يقتلون وينهبون ويسلبون بلا عقل ولا ضمير.

والعجيب أن بعضهم يعرف منزلة الحسين.. حتى أنهم كانوا يخشون أن يقترفوا إثم قتله، فكانوا يبتعدون عنه لعل غيرهم من هو أكثر منهم شراً أن يقترف هذا الإثم..!

وشاهدت السيدة زينب وسط هذا الهول عمر بن سعد.. والذئاب تتكاثر على سيد الشهداء.. ونظرت إلى عمر بن سعد وقالت له:

ـ يا عمر بن سعد.. أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟!

وإذا بعمر يخجل ويدير عينيه التى تساقطت منها الدموع!

وقد سمع المشاركون فى هذه المذبحة الحسين بن على.. وهو واقف كالأسد الجسور يدافع عن نفسه ويهاجمهم، وهو يتجه بكل كيانه إلى الله.

«اللهم امسك عنهم قطر السماء.. وامنعهم بركات الأرض..

اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقًا، واجعلهم طرائق قددا، ولا ترضى عنهم الولاة أبدًا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا».

ورأت السيدة زينب وضاعة هؤلاء الذين طلبوا من الحسين المجىء إليهم لنصرته، فإذا بهم يقابلونه بوجه آخر.. ويد مدججة بالسلاح، ويجردونه حتى من ملابسه عندما خر البطل صريع الخيانة والنذالة والسماجة!

لقد تحملت السيدة الفاضلة سليلة البيت النبوى فى ذلك

اليوم ما هو فوق طاقة البشر.. وهى ترى الساحة مليئة بالجثث والدماء والأشلاء.. فلم تمتلك نفسها عندما أمر عمر بن سعد من يصطحب السيدة زينب، وبنات الحسين وأخوته، وعلى بن الحسين الذى أنقذه من الموت مرضه ـ للذهاب إلى دار الطاغية عبيد الله بن زياد ـ لم تمتلك السيدة زينب نفسها بعد كل ما مر بها من أهوال يوم كربلاء.. بأن صرخت وهى ترى جثة الإمام الشهيد!

يا محمـــداه.. يا محمـداه

صلى عليـك ملائكة السمـاء

هـــذا الحسـين بالـــعـراء

مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء

يا محمداه.. وبناتـك سبايـا

وذريتك مقتلة.. تسفى عليها الصبا

* * *

إن هؤلاء الذين نزعت أبسط القواعد الأخلاقية من قلوبهم نزعوا رءوس كل الشهداء.. ليطوفوا بهم فى شوارع الكوفة.. وعرضها على واليهم السفاح عبيد الله بن زياد..!

إن السيدة الطاهرة لم ينتهى أساها بانتهاء هذا اليوم الطويل.. جد طويل.. يوم كربلاء.. بل زاد أساها وهى تساق مع آل بيت رسول الله إلى عبيد الله بن زياد.. وإذا بها ترى رأس الحسين فى يد الطاغية وهو يعبث بقضيب معه بها.. حتى أن هذا التصرف الغبى لم يرق لأحد الحاضرين وهو زيد بن الأرقم، فصاح فيه.

ـ اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما ولم يتمالك الشيخ نفسه فبكى.

فقال له ابن زياد:

ـ أبكى الله عينيك فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك!

فخرج الشيخ وهو يحدث نفسه:

قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل فبعدا لمن رضى بالذل.

* * *

دخلت السيدة زينب مع آل البيت فى هذا الجو المكفهر الحزين، وشاهدها ابن زياد ولم يعرفها، ولفت نظره صمتها

وحزنها العميق.. وسأل عن هذه التى دخلت مجلسه، ولم تجبه.. كان الأسى والحزن والفواجع التى مرت بها فوق كل احتمال. وأعاد اللئيم سؤاله.

فقالت إحدى إمائها:

ـ هذه زينب ابنة فاطمة..

فقال لها بكل غرور وصلف السلطة، وبلغة المنتصر المتشفى الذى يفيض حقدًا ولؤمًا:

- الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثكم.

وبكل جلال المتقين الصابرين قالت له:

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ، وطهرنا تطهيرا لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر.

ولكن ابن زياد بدلاً من أن يخجل، ويؤثر الصمت، ويلوذ بالعقل، ويحاول أن يبرر ما حدث حتى ولو بمعسول الكلام.. بدلاً من أن يتحدث بما يليق من مواقف مع عقيلة بنى هاشم السيدة زينب فإذا به يفصح عن حقده الدفين، وقلبه الأسود وصدره الممتلىء غيظًا، وينضح جهلاً.

قال لها: فكيف رأيت ما صنع الله بأهل بيتك؟

بإيمان الصابرين أجابت:

ـ كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه وتخاصمون عنده..

وأمام بلاغة السيدة زينب، ورباطة جأشها، وحديثها العميق الممتلئ بالحكمة، والفهم، وقدرتها على رد هذا الطاغية والتقليل من شأنه، حتى جعلته يبدو ـ بمنطقها ـ صغيراً.. فإذا به يتحدث وكأن الشيطان يتحدث بلسانه قائلاً:

ـ قد أشفى الله نفسى من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك!!

وكانت هذه الكلمة قد مست وتراً حساساً فى قلب السيدة الفاضلة.. التى تذكرت أخاها الشهيد.. وتذكرت ما فعله به البغاة.

وكأن شريط زاكرتها قد مر بكل هذه الأحداث.. فبكت.. وغلبتها مشاعر الأنوثة فقالت:

ـ لعمرى.. لقد قتلت كهلى، وأبرزت أهلى، وقطعت فرعى، واجتثثت أصلى، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت.

فقال لها عبيد الله:

ـ هذه شجاعة، لعمرى كان أبوك شاعراً شجاعاً.

وحاول عبيد الله أن يقتل على بن الحسين، إلا أن عمته زينب، احتضنته، وطلبت منه أن يقتلها معه!!

فصمت عبيد الله بن زياد، وكتب لعلى بن الحسين(على زين العابدين).. النجاة من مجازر بنى أمية.. بفضل عمته زينب.

* * *